اللغة العربية في روسيا الاتحادية / الواقع والطموح

أ.د. عبدالرزاق عبدالرحمن أسعد السعدي

نبذة تاريخية عن روسيا ووجود اللغة العربية فيها:

لا نريد أن نُوغل في التاريخ الروسي الضارب في الزمن، وحسبنا أن نذكر في هذا البحث ما يلامس موضوع اللغة العربية، ذلك أن هذه اللغة عبرت حدود الجزيرة العربية وجنوبها إلى العالم من خلال الفتوحات الإسلامية، وانتشار الإسلام شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، وتمسَّك الذين أسلموا بتعاليم هذا الدين الذي يعتمد في تشريعاته على القرآن الكريم وسنة نبيّ الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، و لغة هذين المصدرين للتشريع الإسلامي هي اللغة العربية المعجزة، التي أعجزت بلغاء العرب وفصحاءهم عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، ولا بعشر سور مفتريات من سوره، بل ولا بسورة واحدة من مثله، فكان لزاما أن تفرض اللغة العربية وجودها في كل بقعة من بقاع الأرض التي دخلها الإسلام.

وإنَّ من البقاع التي انتشر فيها نور الإسلام الجانبَ الشمالي والشرقي من الأرض الذي يمتد من حدود الجزيرة العربية حتى نهاية سيبريا حيث يلتقي الشفق بالغسق فلا ليل ولا نهار، مرورا بالعراق وبلاد فارس وآسيا الوسطى والقوقاز وبلاد نهر الفولغا وغيرها، وكانت بداية الإسلام في روسيا وقيام أول دولة إسلامية في بلغار، تلك المدينة التي تقع على نهر الفولغا غرب مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان، حين قَدِمَ وفدٌ من بلغار الفولغا إلى بغداد، حيث الخليفة العباسي أمير المؤمنين جعفر بن عبدالله الملقب بـ (المقتدر بالله)،طالبين منه أن يرسل معهم بعثة علمية من علماء بغداد وفقهائها، ليُعلِّموا الناسَ أحكام الإسلام وتعاليمَه، لأنهم محاطون بأمة وثنية من الروس والسلاف وغيرهم، فاستجاب الخليفة العباسي لطلب الوفد البلغاري، وشكل وفدا بغداديا ضخما برئاسة عالم بغداد الشيخ أحمد بن فضلان البغدادي، الذي حمل رسالة الخليفة العباسي إلى ملك بلغار.

وقد بدأ الوفد رحلته منطلقا من بغداد يوم الخميس ١١/ صفر/٣٠٩هـ الموافق ٢١/ حزيران (يونيو)/٩٢١م في رحلة شاقة طوية، اسغرقت أكثر أحد عشر شهرا، وحين وصل الوفد البغدادي مشارف مدينة بلعار الفولغا قام ملك الصقالبة وهو (ألمَشُ بن يلطوار) باستقبال الوفد من خارج المدينة بنفسه ومعه أخوته وأولاده وحاشيته وأركان دولته استقبالا حافلا، وخرَّ الملك ساجدا شكرا لله تعالى على وصول هذا الوفد من بغداد، فأكرمهم وأحسن ضيافتهم، ثم ألقى ابن فضلان رسالة المقتدر بالله على مسامع ملك الصقالبة وأهل بلغار في حفل مهيب ساده الفرح والتكبير، فأسلم الملك، وأسلمت رعيته، وأعلن أن دين الدولة هو الإسلام، واستبدل الملك اسمه فتسمى باسم الخليفة العباسي تبركا به، وكان وصول الوفد في يوم الأحد ٢١/محرم/٣١٠م المصادف ١٢/ أيار (مايو)/٩٢٢م.

وانطلق أعضاء الوفد البغدادي يعلمون أحكام الإسلام، فأقاموا الجمعة بالمسلمين، وبنوا لهم مسجدا، لا تزال آثاره المهدَّمةَ قائمة على الأرض، وكان من العلوم التي قدمها الوفد البغدادي علومُ اللغة العربية، وتعليم النطق بها، من خلال تعليم قراءة القرآن الكريم، وتعليم نصوص الحديث النبوي الشريف.

ومن هنا بدأت اللغة العربية في الديار الروسية، فنبغ من أبنائها رجال ونساء في العربية والعلوم الأخرى، واشتهر علماء من التتار برعوا في التاريخ والفقه واللغة العربية والعلوم الأخرى، وقد استمرت النهضة الإسلامية والعلمية قرونا طويلة، ومرَّ المسلمون في بلاد التتار بمحن كثيرة، فصمدوا أمامها وحافظوا على دينهم وعلى لغة القرآن، حتى دخلوا في محنة كبيرة في القرن العشرين الميلادي، من خلال الحكم الشيوعي الذي أسقط حكم القياصرة، وامتد خمسا وسبعين سنة عجافا،ابتداء من سنة ١٩١٧م وقيام الاتحاد السوفيتي، فقدعانى فيها المسلمون وعلماؤهم قتلا وتشريدا ونفيا وظلما وقمعا وإبادة، وقد أُحرقت مصاحف وكتب علمية وهُدمت مساجد ومدارس ومؤسسات إسلامية،

حتى فرج الله تعالى في أواخر عام ١٩٩١م بانهيار الاتحاد السوفيتي، وقيام الحكم الفدرالي في دولة (روسيا الاتحادية) التي ضمت عددا كبيرا من الجمهوريات والمدن الكبيرة، فنهض المسلمون – بعد أن أُعيدت إليهم حرية الدين والتعلم والتعليم – ببناء آلاف المساجد والمدارس والجامعات والمؤسسات الإسلامية، ونالت الإدارات الدينية استقلالها؛ لتشرف على شؤون الإسلام والمسلمين.

التتار والمغول:

تلتبس على كثير من الناس قوميةُ الجماعات التي دخلت بغداد سنة ٦٥٦للهجرة، أَهُمُ التتار أم المغول؟، وكثير منهم يعتقدون أنه لا فرق بين التتار والمغول، وحقيقة الأمر أن التتار والمغول قوميتان مختلفتان، رغم أنهما كانا يسكنان هضبة منغوليا، فالتتار في جنوبها من جهة الصين، والمغول في شمالها من جهة سيبريا، وهما أبناء عمومة مع التُّرك، وجاء تيمورلنك وهو تتري من أوزبكستان ينتسب إلى الإسلام لنكه شديد البغض لأهل السنة، بما فيهم قومُه التتار، فقام بثورة على الخان المغولي وسيطر على جميع البلاد، ثم انقضَّ على بلاد فارس وكانت سنية فأباد مئات الآلاف من أهلها، ثم توجه إلى العراق وفعل مافعل، ثم حارب المماليك في بلاد الشام، ثم انحدر إلى بلاد الروس والقوقاز واصطدم مع العثمانيين، ثم انهارت دولة تيمورلنك بعد موته.

فالمغول كانوا قوام جيش تيمورلنك وكانوا شرسين في الهجوم والقتال، وهم الذين عاثوا في بلاد المسلمين فسادا، حتى انكسرت شوكتهم على يد المماليك في معركة عين جالوت وانهزم جيش المغول بقيادة هولاكو وقوَّاده المغول، أما الأسباب التي جعلت المؤرخين يذكرون التتار بدلا من المغول بقولهم: (الهجوم التتري) فلكون طلائع الجيش وضعها المغولُ من التتار لتجنب وقوع الخسائر فيهم، وكان المغول يعودون إلى بلادهم بعد انتهاء معاركهم طلبا للبرد الذي ألفوه في ديارهم ويتركون في البلدان حاميات من التتار.

اللغة العربية في روسيا:

مما سبق ندرك أن وجود اللغة العربية في روسيا بدأ في مطلع القرن الرابع الهجري، الذي يصادف مطلع القرن العاشر الميلادي، فهو وجودٌ ضارب في جذور التاريخ الإسلامي لروسيا الاتحادية، التي تضم عددا من الجمهوريات التي لا تزال ضمن الإدارة الروسية الاتحادية والعاصمة الكبرى هي مدينة موسكو، وهناك جمهوريات أخذت استقلالها بعد زوال الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م .

وفي روسيا الاتحادية عدد من القوميات والأديان، ويزيد عدد المسلمين فيها على ثمانية وعشرين مليون مسلم، فيشكلون ٢٠٪ عشرين بالمائة من سكان روسيا، وهناك هجرة ملحوظة من المسلمين والعرب إلى روسيا، مما انتج مصالح مشتركة ومصاهرات كثيرة.

وفي روسيا الاتحادية سبعٌ وعشرون لغة رسمية في مناطق مختلفة من روسيا، وهناك أكثر من ١٠٠ مائة لغة للأقليات الصغيرة، وتأتي اللغة الروسية في مقدمة تلك اللغات، والتي يتحدث بها حوالي ٣٠٠ ثلاثمائة مليون فرد، وهي اللغة الرسمية في لعموم البلاد، وتتكون حروفها من ٣٣ ثلاثة وثلاثين حرفا.

أما اللغة العربية في روسيا الاتحادية فلها تاريخ حافل وحضور متميز، ولكن بدون اعتراف بها، ودون منهج أو برنامج يدير شؤون اللغة العربية، وكل ما يمكن قوله في هذا البحث: هو أن الرغبة في تعلم اللغة العربية شديدة عند أبناء المسلمين والروس وغيرهم، لذلك تنوي الإدارة الروسية إدخال اللغة العربية الفصحى في مناهج التعليم الجامعي بالإضافة إلى اللغات الأخرى.

وقد شهدت روسيا قبل المد الشيوعي حركة علمية من علماء التتارفي كل التخصصات، وحركة تأليف باللغة العربية،تمتد قرونا منذ دخول الإسلام إلى تلك البلاد عام ٣١٠هـ، ولا يزال كثير من المخطوطات تنتشر في عدد من مناطق روسيا انتشارا عشوائيا من دون إدراك لأهميتها، فتراث التتار منتشر في جمهورية تتارستان وجمهورية باشقرتستان والشيشان وداغسان وغيرها، وكان لعلماء التتار حضور واضح في حركة التأليف والتدريس، ومن بين تلك المؤلفات التتارية مؤلفات في النحو الصرف واللغة بالإضافة إلى مؤلفات في الشريعة الإسلامية.

ورغم قلة معاهد تعليم اللغة العربية في روسيا، فإن الإقبال على تعلم اللغة العربية كثير، مما سبب هجرة الطلاب الروس إلى دول شتى لتعلم هذه اللغة، وهذا ما سيفصله البحث بإذن الله تعالى.

العربية لغة الكتابة في روسيا:

معلوم أن اللغة الروسية هي اللغة الرسمية لروسيا الاتحادية، لكنَّ المسلمين في روسيا يتكلمون الروسية إلى جانب

لغتهم الأم وهي اللغة التتارية، وعدد منهم يتكلمون اللغة العربية بدرجات متفاوتة، وكانت الكتابة لدى علماء التتار بالحرف العربي، أما المضمون فإما أن يكون عربيا وإما أن يكون تتريا على التفصيل الآتي:

أولا – كتب علماء التتار المسلمون معظم مؤلفاتهم في كل العلوم باللغة التترية بخطٍ وحرفٍ عربي، ولم يكن لديهم معرفة بلغةٍ سوى لغتهم الأصلية وهي التترية، وما تعلموه من اللغة العربية، وقد اطلعتُ على عدد من مؤلفات العلماء التتاريين التي لا تزال مخطوطة، ومنها ماهو مطبوع، ومنها ما لم تنله يد الباحثين بالتحقيق والطبع والتصحيح.

ثانيا – ومن علماء التتار من ألف مؤلفات في علوم الشريعة الإسلامية، وعلوم اللغة العربية بلغة عربية، وكتبوها بحرف عربي أصيل، فبعضها طبع، وبعضها لايزال مخطوطا.

أما في الوقت الحاضر فلا وجود للحرف العربي في مؤلفات الروس المسلمين، وإن جميع كتاباتهم بالحروف الروسية الحديثة المعاصرة التي بلغ عددها ثلاثةً وثلاثين حرفا، أما النصوص المنقولة من قرآن وسنة وشعر عربي فتنقل نصا بالحرف العربي، ثم تترجم إما إلى الروسية وإما إلى التترية.

رحلة الروس لتعلم اللغة العربية:

بدأت رحلة المسلمين الروس من التتار وغيرهم إلى البلاد العربية والإسلامية في وقت مبكر من تاريخ دخول الإسلام إلى روسيا، لتعلم العلوم الشرعية عامة وتعلم اللغة العربية خاصة، وتاريخُ المسلمين في روسيا حافل بالشخصيات العلمية التي كانت لها رحلات إلى الحرمين الشريفين وإلى العراق ومصر وسوريا وتركيا وبخارى وإلى دول أخرى.

وقد استمرت رحلة طلاب العلم الروس إلى تلك البلدان في وقتنا المعاصر بنِسَبٍ قليلة، لأسباب عديدة ربما يكون في مقدمتها الجانب الاقتصادي الذي لا يُمَكِّن المغتربَ من سداد نفقاته في سفره، لذلك نجدُ نسبة المتحدثين باللغة العربية في روسيا قليلة، عكس ما عليه المسلمون في جنوب شرق آسيا فالمتحدثون بالعربية كثيرون.

ويلاحظ أن معظم الطلاب الروس الذين يسافرون لطلب العلم وتعلم اللغة العربية لايواصلون الدراسة لإكمال مرحلة معينة من مراحل التعليم، بل يدرس أحدهم شهورا معينة ثم يعود إلى بلاده، لذلك تجد أكثرهم لا يحمل الشهادة الجامعية الأولية ولا الشهادة الدراسية العليا إلا قليلا منهم، وهذا يعود لأسباب عديدة في مقدمتها أن العمل في المؤسسات الدينية ومنها المساجد والمدارس والجامعات الإسلامية لا يرتبط بالدولة ولا ينظمه قانون، بل هو تعيين من قبل المؤسسة نفسها التي لا تدقق في مستوى التحصيل العلمي، ففي مناطق عديدة من روسيا تقوم مدارس إسلامية وسبع جامعات إسلامية، ودورات لتعليم القرآن الكريم، ولتعليم اللغة العربية، ويدرَّس في ذلك كله أساتذة لا يحملون مؤهلا علميا محددا، وهذا أدى إلى ضَعفٍ في اتقان اللغة العربية، وجهلٍ في قواعدها وعلومها.

وهناك من الطلاب الروس من تعلم اللغة العربية في بلاده ولم يغادر إلى بلد آخر، وهؤلاء تتفاوت مستوياتهم في إتقان اللغة العربية ضعفا وقوةً من حيث المحادثة، أما من حيث قواعد اللغة العربية فالضعف فيها واضح وملموس.

تدريس اللغة العربية في روسيا:

تدريس اللغة العربية في روسيا يأخذ ثلاثة أبعاد هي:

١– البعد الشخصي: وهو أن يسعى الراغب في تعلم اللغة العربية بجهوده الخاصة بالاتفاق مع مدرس أو مدرسة ممن تعلموا اللغة العربية، وغالبا ما يحدث هذا من أبناء المسلمين، رغبة منهم في إتقان قراءة القرآن الكريم، أو كان أحدهم كثير التعامل مع العرب في التجارة والمصالح الأخرى، أو كثير السفر إلى البلاد العربية، أو محبا لهذه اللغة لأنها لغة القرآن ولغة نبي الإسلام، ومثل هذا النوع من المتعلمين تكون معرفتهم باللغة العربية معرفة محادثة بالدرجة الآولى، وقد تتبعها معرفة كتابية اللغة، ولا معرفة بقواعدَ وضوابط وإعراب وتحليل، ولا معرفةَ بلغة وصرف ونحو وأدب.

٢– البعد الديني المؤسسي: وهو تدريس اللغة العربية في المدارس الإسلامية والجامعات الإسلامية، وهناك مناهج مبسطة وضعت في مراحل هذه المؤسسات، من خلال كتب مبسطة تشمل قواعد فنون اللغة العربية من صرف ونحو ولغة وأدب بمراحله المتعددة، وتبقى صفة الضعف قائمة لأن من يتولى التدريس فيها غالبا ما يكون قليل البضاعة في فنون اللغة العربية.

٣- البعد الحكومي المؤسسي: فمن المعلوم أن الدولة الروسية لا تعترف بغير اللغة والثقافة الروسية إلى عهد قريب، مع أن اللغة العربية ليست دخيلة على البلدان الروسية، فوجودها ضاربٌ في التاريخ الروسي منذ أن دخل فيها الإسلام، فهي لغة تعيش بين ظهراني الروس والتتار قرونا عديدة، وهي لغة تُنمي العلاقات الروسية بالعالم العربي والإسلامي، بل كانت اللغة العربية منذ القرن السابع الميلادي لغة التخاطب الرسمية من خلال الاهتمام بها في منطقة داغستان ووصلت إلى نهر الفولغا، واستمرت حتى القرن التاسع الميلادي.

ويلاحظ أن روسيا الاتحادية قد بدأت بالاهتمام بالمناطق الإسلامية في شتى المجالات ومنها مجال اللغة العربية، فبدأ تدريس اللغة العربية في الجامعات الحكومية، وافتتحت قناة فضائية ناطقة باللغة العربية تحت اسم (روسيا اليوم)، لمخاطبة الشعوب العربية، ثم انضمت إليها إذاعة موسكو الناطقة باللغة العربية، وهناك معاهد لتدريس اللغة العربية.

ومما هو جدير بالذكر والاهتمام أن نذكر موافقة الحكومة الروسية المركزية على تأسيس (أكاديمية بلغار الإسلامية للدراسات العليا) والتي مقرها مدينة بلغار على نهر الفولغا غرب مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان وهي واحدة من جمهوريات روسيا الاتحادية، وتُعنَى هذه الأكاديمة بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وعلوم اللغة العربية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وفق منهج محكم يتماشى مع المواصفات العالمية لمثل هذه المراحل الدراسية، وستبدأ الأكاديمة عملها في العام الدراسي ٢٠١٧ – ٢٠١٨ والاستعدادات قائمة لذلك أرضا وبناء ومناهج وكوادر تدريسية وكل المستلزمات المطوبة لإنجاح هذه الأكاديمية.

وضع اللغة العربية في روسيا

إن وضع اللغة العربية في روسيا الاتحادية في هذا الوقت أفضل مما كانت عليه زمن قيام الاتحاد السوفيتي، فهناك تبادل ثقافي مع العالم العربي، وتشجيع على تعلم اللغة العربية اسعدادا للترجمة، فالمترجم إلى العربية مرغوب فيه وعليه إقبال كبير، في المحطات الإعلامية، وتغطية المؤتمرات والندوات، بالإضافة إلى تدريسها في المؤسسات الدراسية المتنوعة، ومع هذا الحضور القوي للغة العربية في روسيا إلا أنها لم تُمنح الصفة الرسمية أو الاعتراف بها رسميا، حتى أن اللافتات المكتوبة باللغة العربية مختفية في المطاعم العربية، ومراكز التجارة الصغيرة.

المشكلات التي تواجه اللغة العربية في روسيا:

تواجه اللغة العربية مشكلات عديدة تسببت في عدم تقدمها ونشرها كما ينبغي، ومن تلك المشاكل ما يأتي:

١- كثرة الكتابات التي تهاجم اللغة العربية من قبل المستشرقين الغربيين، مما يترك قلقا في نفوس المتقدمين لدراستها واتقانها.

٢- تفاوت مناهج تدريس اللغة العربية، فلا يوجد منهج موحد رصين، يركن إليه دارس هذه اللغة، مما يسبب له إرباكا في تعلمها.

٣- ضعف التدريسيين الذين يقومون بمهمة تدريس اللغة العربية، فتجد المدرس إما أن يكون مواطنا روسيا وهو في الأصل قليل البضاعة في العربية، وإما أن يكون المدرس وافدا من البلاد العربية أو الإسلامية وهو لايعلم عن قواعد اللغة العربية شيئا سوى أنه يتكلم بها، لأن تخصصه في بلاده بعيد عن موضوع اللغة، فهو إما مهندس أو طبيب أو متخصص بعلوم الفيزياء أو الكيمياء أو القانون أو الاقتصاد أو غيرها ودخل إلى روسيا بحثا عن عمل يعيش من خلاله، فيتولى تدريس اللغة العربية وهو لا يعلم عنها شيئا.

٤- تفاوت اللهجات العربية المحلية في بلاد العرب، وتأثر الدارسين بها مما يسبب لديهم ضعفا في اللغة العربية الفصحى، فالدارس في المغرب العربي يتأثر باللهجات المغاربية، والدارس في المشرق العربي يتأثر باللهجات المشرقية.

٥- فقدان الدعم المادي والمعنوي لتعليم اللغة العربية ونشرها في ربوع الأرض، فعلى الرغم من أن العربية لغة حية باقية ما بقيت الحياة، وأنها لغة دين يعتنقه أكثر من خمس سكان الكرة الأرضية وهو دين الإسلام، إلا أن التقصير العربي والإسلامي الحكومي والشعبي واضح في هذا المجال، وتبرزآثار هذا التقصير في البلدان الروسية، بسبب توجه الجهود العربية والإسلامية – إن وجدت – إلى بلاد الغرب الأوربي وما حاذاه، من دون التوجه إلى بلاد الروس وربما

يعود ذلك لأسباب عديدة لا يتسع هذا البحث لذكرها.

توصيات:

بعد هذا العرض الموجز الذي يقدم تصورا مجملا عن وضع اللغة العربية بكل أبعاده في روسيا الاتحادية أضع التوصيات الآتية من خلال هذا المؤتمر السادس للغة العربية الذي يضطلع بشؤون انعقاده المجلس الدولي للغة العربية في مدينة دبي في الإمارات العربية المتحدة والتوصيات هي:

أولا – أدعو كل غيور على اللغة العربية، ومهتم بشؤونها، ومؤمن بأهميتها، من المؤسسات الحكومية والأهلية والأفراد الموسرين أن يتقدموا بالدعم المادي لقيام مراكز في روسيا الاتحادية تعنى بشؤون اللغة العربية تعليما وتعلما ونشرا وتفهيما، خدمة للغة القرآن والحديث النبوي الشريف، ونشرا لتعاليم الإسلام الحنيف السمحة ومكارمه العظيمة التي تؤدي إلى سعادة البشرية، بعيدا عن النزاعات والخروقات التي تُعكر صفوَ الحياة.

ثانيا – أدعو كل المتخصصين باللغة العربية، والفاعلين في تنميتها تدريسا وتأليفا وإشرافا أن يقدموا ما يستطيعون من خدمةٍ مباركة لنشر اللغة العربية في روسيا الاتحادية، سواء أكان ذلك من انتاجهم العلمي، أم من تجاربهم في هذا المضمار، أم بتدريسهم وعطائهم خدمة لهذه اللغة الشريفة.